رسائل الجندي المنسيّة

باسل محمد عبد الكريم

الكتاب: رسائل الجندي المنسيّة

المؤلف: باسل محمد عبد الكريم

ISPN:

الطبعة الأولى /2022/



دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيـع
سورية-دمشق-الحلبوني-بناء اتحاد الناشرين
سورية -السويداء -مقابل المشفى الوطني
تلفاكس: 0096316211260

kiwan.publishing@gmail.com

kiwan_house@yahoo.com

www.facebook.com/kiwanhouse

رسائل الجندي المنسيّة

باسل محمد عبد الكريم

تقديم

من حرب الثمانينات ١٩٨٠ – ١٩٨٨

(هذه الرسائل هي شهادة واقعية وتعبيرية مجتزأة من أوراق جندي مغمور في حرب مشتعلة طيلة أكثر من ثمان سنوات تتناوب فيها الهموم الذاتية والموضوعية، إنها شهادة لزمن مرير)

****

الإهداء

إلى س ....

(الجزء الأول)

"مطر... مطر، أتعلمين أي حزن يبعث المطر؟ وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟ وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟ بلا انتهاء – كالدم المراق، كالجياع، كالحب، كالأطفال، كالموتى – هو المطر!". السيّاب

(1)

إنهم يبتكرون وسائل عديدة لتزويد طاحونة الموت بالوقود الإنساني الرخيص، يحيا الإنسان هنا جميع عمره في لحظة لأنه يموت أيضاً في لحظة!

في الثكنات، نتجرع الذل حتى الثمالة، يسوموننا شتى أشكال المهانة، نشربها جميعاً مرعوبين مهزوزين، متناسين ملامحنا الأليفة، ووجوه أحبتنا، مرات عديدة أنسى ملامحك وأتخيل أني وحيداً، وأتصرف على ضوء وحدتي الموحشة، ماذا يفعل رجل وحيد يشرب ذله يومياً وينسى حتى اسمه أحياناً، تلك الأسماء التي لا نختارها...

كيف يذل الإنسان، كيف يهان، كيف يحاصر، كيف يتم ابتزازه ومصادرته، كيف يتم إلغاؤه وتحويله إلى عدة أصفار، كيف يتحول إلى لا شيء، كل ذلك يحدث على هذه الأرض الضيقة – الواسعة التي تسمى الوطن، ما هو شكل الرعب الذي يحيطنا إذاً، وكيف تكون وحشيته وهمجيته وصلافته؟ كيف يكون لنا، إذاً، الاحتفاظ بمعادلتنا متوازنةً، أهو الموت إذاً «إن كان هو الموت دوماً، فهو يأتي تالياً، الحرية دائماً، هي الأولى» يانيس ريتسوس – شاعر يوناني.

(2)

حديث الجنود الدائم هو الحرب، نستمع إلى هذا الحديث بلهفة مرعوبة، لهفة الاكتشاف ورعب الموت المجاني، هنا لا يمكن إلا أن (تعيش) هذه الأحاديث، ويبدو أن مجموعة المدفع المضاد للطائرات قد تكيفت مع نفسها ومع هذه الصحراء الملعونة، هنا تكتشف الآخر بسهولة، فإنه لا يملك إلا أن يقدم نفسه ليكسر حدة الرتابة المميتة التي تقيده إلى نفسه وإلى المكان.

(شاكر) بحار سابق عرفته موانئ البحر الأسود وحانات دول البلقان، في قسماته حدة وفي كلماته سخرية مرة، مما تلمسته أصابعه وشاهدته عيناه، يدعوك لأن تتعامل معه بجدية وحذر، خصوصاً وإن بدايات معرفته بالعالم في أزقة بغداد القديمة قادته لخيارات متعصبة وولاءات شوفينية ممجوجة.

(3)

كل شيء هنا غير متوقع بل ومحكوم بالصدف والمفاجآت، القصف المدفعي، الخوف ونسيان الأشياء الجميلة، يدفعنا إلى أن ننصهر ضمن دورة الحياة في ملجأ تحت الأرض تعبث فيه الجرذان والنمل القاسي، حيث تكتسب الأشياء خشونتها وفضاضتها، من خلال قسوة الواقع ويباسه وأحاديث العائدين من الموت نشم رائحة الحياة المصادرة دونما ثمن أو مبدأ. «أليس من حقنا أن نعيش الحياة أو نختار الهواء الذي نتنفس..»

تلك بعض كلمات (محمد حسن) ذاك الفتى الغريب الطباع المتلهف لأن يعرف شيئاً عن العالم منذ التقيته، شعرت أنه قريب مني عبر محاولاته المستمرة لأن يكتشف تلك العوالم التي أبحرنا فيها عبر أدواتنا المعرفية في أجواء تكاد تكون ملغومة ومتخمة بالرياء، أخيرا وجد نفسه محاولاً العبور وقد عبر. أنه رفيق الخنادق والمتاريس له رواية بعنوان (هبوط الملائكة) صدرت أواخر عام 2014 ويقيم في بلجيكا.

(4)

ها هي البصرة، مصبوغة باللون (الخاكي) شعراؤها غابوا ونخيلها الأخضر الزاهي يعيش خيبته السوداء، ليس فيها من البصرة إلا الاسم، عندما يدخلها القطار صباحاً، تكون مسكونة بالفاجعة صفراء ورمادية، ما هذا الهلع الحربي الذي رسمته أيادي القتلة، وأي التبريرات يمكن أن تزرع القناعة، بل أي قناعة تكون في غياب كل القناعات، إنها سخرية سوداء، غير أن ضحكة التاريـخ ستكون مجلجلةً حتماً!

(5)

"أمَّةٌ تقولُ في أسوءِ أوضاعٍ لها لا بأس، تموتُ فيها الشمس"
شاعر مجهول.

الجميع نيام في عربة النقل العسكرية، وأنا أتأبط خوذتي المعدنية، لا ندري ما سيحدث، فنحن ذاهبون إلى سربيل زهاب الإيرانية...

مع كثرة التوقعات وكثرة الهواجس التي تصاحبنا عند سماع كل خبر يتناقله الجنود الخائبون الذين يتوقعون الموت عند

كل كيلومتر بل عند كل متر تخطوه أقدامهم، بعضهم يفكر بالهرب والآخر مدعياً ضرورة الدفاع عن النفس والوطن، وبعضهم استسلم لواقع ليس له يد فيه، هنا، تكون حالة من الاستذكار المر للأحبة والأصدقاء، للأهل بكل مرارتهم وإزعاجهم، والحديث يدور عن أي جبال ووديان تلك التي سيزرعونا فيها!

وها نحن بعمق يتراوح بين 10 إلى 20 كيلومتر في الأراضي الإيرانية، فجأة تغيب كل التوقعات وتظهر حقيقة الأمور، ملساء غبية كموت أرعن لنملة في صحراء، هكذا وجدنا أنفسنا حسب وعينا للمكان وطبيعة المهمة العرجاء، كلٌّ يحبس هواجسه ويمنعها من أن تعلن عن نفسها كخوف ملموس يسري في قلب يفور بحرارة الحياة.

هذه المنطقة إيرانية وذلك يعني عدة أشياء، حيث نربض على قمة جبل يرتفع 600 متر عن سطح البحر من سلسلة جبال (تك تك) الإيرانية، تحوطنا عدة جبال، أحدها يسمى (السلمانات) بارتفاع 920 متر عن سطح البحر، وهو إيراني، والآخر يدعى جبل (پمو) وهو عراقي حيث يقع كلاهما إلى شمال المنطقة التي نعسكر فيها وهما متلاصقين، أما في الغرب فتقع مجموعة من الوديان الإيرانية المحتلة وإلى الجنوب حوض سربيل زهاب بكل رعبه، أما شرقاً أي في مواجهتنا تماماً فسلسلةٌ من جبال عالية تحتها مجموعة من التلال ثم الوادي الكبير .

الوادي هو المنطقة الحرام بيننا وبينهم، الأرض صخرية جرداء ترعى فيها العقارب والأفاعي والذباب القاسي، غير أن مشكلتنا الرئيسية بعد (الحياة) هي (الماء) فالماء هنا عملة نادرة، بعضهم يجلبه بواسطة البغال والآخرون يصبحون (بغالاً) لكي يستطيعوا الحصول على الماء في أحيان أخرى ومنهم أنا.

علاقتنا ببعضنا لم تأخذ مسارها الطبيعي، الأكل قليل وغالباً ما نقنع بوجبة واحدة، والليل هنا مرعب، فهو يحمل كل توقعات الحرب من تسلل أو إنزال أو قصف مدفعي مفاجئ في الليل يبرد الهواء نوعاً ما، وليلة البارحة كانت عصيبة، فقد حاولوا الالتفاف علينا من فتحتين جبليتين، كانت هناك حالة من الرعب الذي أفقدنا توازننا، هل أن موتنا سيغير شيئاً، لم ننم حتى الفجر وأسلحتنا الخفيفة مترقبة «لابد وإن أحدهم افترى الأكاذيب على (ك) لأنه دون أن يرتكب أي خطأ قبض عليه في صبيحة يوم مشمس»

من رواية المحاكمة لكافكا. كم (ك) كتب عليه أن يعيش حياته مقبوضاً عليه في أماكن منسية من هذا الوطن العزيز علينا!

(6)

كان صوتك واهناً مرةً، مرتعشاً مرة أخرى، قوياً مفعماً بالأمل الحار في أخرى، لكن صوتك يأبى أن ينساني كجرحٍ غائر في القلب، أتتذكرين ارتعاشات الصوت عندما كانت أصابعنا لا تلتقي إلا حذرة متوجسةً منتظرةً موعدها البهي وحزنها الذي يراودها كالحنين إلى الطفولة.

هل رأيتِ مرةً عربة لغجر راحلين؟ إذا تصورتِ ذلك المشهد فهو عربتنا العسكرية بمظلتها المكشوفة لثلاثة جهات وطاقمها المكون من ستة جنود وسائق مخمور أرعن، نحن هنا نقيس الأشياء بمدى ما توفره لنا من سبل للأمان والعيش أي المقياس المادي الاستهلاكي، استهلاكية العيش والأمان، معنا ماؤنا، وصموننا اليابس وبقايا روائح الأمس.

لم أكتب عن زهور النرجس البيضاء والبنفسجية تلك التي تنتشر بوفرة غريبة على سفوح الجبال هنا وذلك لأني لم أتخلص من الكوابيس التي لازمتني كالظل، كوابيس لا تهدأ، أن الطبيعة هنا يتزاوج فيها موسمي الخريف والربيع في أشكال وصور رائعة ومحزنة!

(7)

بعضهم يلعب الشطرنج والبعض الآخر يسرح في أوهام الانسحاب والعودة إلى خطوط الأمان..

الشمس تتكسر أشعتها بين قمم الجبال، فجبل (السلمانات) يحجبها عنا مبكراً فلا نستطيع أن نشهد لحظات الغروب الجميلة.

ابتدأنا اليوم عملية تخفيض كمية العتاد المخزون لدينا حتى تسهل علينا الحركة عند الضرورة، وبالطبع تحولنا إلى أشباه البغال، فصندوق العتاد يزن 36 كغم محمولاً على الظهر ونازلين به من ارتفاع قمة جبل (تك تك) حوالي 600 متر فوق سطح البحر إلى إحدى منعطفاته حتى تحمله العربات العسكرية، كانت العملية في البداية صعبة بالنسبة لي إلا أنها أصبحت عادية أخيراً حتى ظننت مع نفسي أنني أستطيع العمل كحمال مع حمالي (الشورجة) إذا ضاقت بي الأمور يوماً.

تذكرتُ أمي، فدمعت عيناي، أن أمي تقبلني عادةً من رقبتي، وتشمني شماً (أُموُياً) حين تودعني وكأنها تودعني لآخر مرة!

(8)

اليوم ومنذ الصباح الباكر كنا مشغولين بإنزال العتاد من الجبل، حيث بلغ مجموع ما أنزلناه خلال يوم ونصف مئة صندوق زنة الواحد منه 36 كغم وأربعة جنود فقط كانوا يقومون بالعمل وأنا منهم طبعاً، أنجزنا هذا العمل المرهق جداً وحررنا المدافع من مواضعها، ضمن هذا الخضم تساءلت: ما هو السر وراء إصرارنا على أن نعيش حياتنا دافقةً ومترعةً بالإخضرار رغم كل شيء؟

ابتسمت مع نفسي وتذكرت أشياء طريفة بيننا.

يبدو أننا سننسحب قريباً، ولكنني لا أصدق مجيء هذا اليوم، فالأيام هنا ثقيلة كالرصاص، مع كل المراره التي نلوكها ونحاول أن نتناساها في دوامة الجوع والعطش والخوف والتعب اليومي.

وها نحن نحزم حاجياتنا على استعداد للانسحاب، الجميع ينتظرون ذلك، الغروب يبدو ثقيلاً، أشعرني بوحدانيتي البائسة، الساعات هنا بطيئةٌ جداً والأيام كالسنين العجاف...

(9)

الغيوم المبكرة تزرع كبد السماء، فتحجب شمس الصباح الساخنة، إن حرارتها هنا ولارتفاع المكان النسبي تجعلنا نتمنى أن تكون الغيوم دائمة، أي جمال مدهش ذاك الذي يتجلى بالطبيعة عندما تجود به، فيجعلنا متسمرين أمامه عاجزين عن وصفه، إن الظل التي تعكسه الغيوم لانحجاب الشمس يظهر هذا التجسيد البالغ لتعرجات وانحناءات الجبال، فجبل (بمو) يبدو الآن وكأن أصابع نحات طويل الصبر قد عملت به ما عملت من أفانين النحت الرهيبة، حتى إن أحد الجنود قال:

انظروا إلى هذه الصفحة من الجبل كأنها باب كبيرة رهيبة، إن من يفتحها يظهر له عملاق رهيب يقول له «شبيك لبيك»

ومن فرط الدهشة تقول له: حاول أيها العملاق أن تنهي هذه الحرب الملعونة، فيضحك العملاق بقوةٍ ثم تتساقط الحجارة حواليه، قائلا:

لو أنني أستطيع إيفاقها لما اختبأت في هذا الدهليز الجبلي المعتم طيلة هذا الزمن!

(10)

عشنا ساعات عصيبة قبيل الانسحاب حتى إننا لم نعد نطيق بعضنا، ووصلت بنا الأمور حد التضارب فيما بيننا، عدا تبادل العبارات الكلامية الخشنة والحادة، السب والشتم أخذ صفة العلانية التي لا يمكن توقعها، وها نحن كغجر تعساء نجرجر أذيالنا وجراحنا، والذين ذهبوا منا هدراً لقاء العنتريات الفقاعية، كل ذلك نحمله معنا كتاريخ مظلم محزن فيه كل شيء مقرف، وأغلبهم يجتر هذه اللوعة، إلا إنهم يعيشون همومهم مثلما نخلاتٌ حائرةٌ زرعت على قمة جبل غبي!..

سمعت فيروز اليوم صباحاً فتفتحت أساريري وودت لو أرقص!

(11)

ابتدأ انسحابنا عند الرابعة صباحاً إلى داخل الحدود العراقية، عند فتحة (بسي) وهي مكان مرتفع ومقفر.

إنها الآن الثالثة ظهراً وجوع رهيب يعصف بي حيث إن (القصعة) لاتصلنا إلا في حدود الثالثة أو الرابعة عصراً في

أحسن الأحوال، هنا لا يمكن أن تكون شيئاً آخر فالجميع يعيشون نفس الحالة، العزلة الموجعة عن أهلهم وأطفالهم ومدنهم المهجورة إلا من الغرباء، حتى لعبة الشطرنج أو الدومينو وكذلك قراءة كتاب أو صحيفة لا ينفع في تبديد هذه العزلة حتى الراديو فهو سيء من جميع جوانبه.

هذا هو اليوم الثالث لرجوعنا داخل الحدود العراقية، إن موقعنا الآن يشكل خطاً أمامياً يقع ضمن مدى المدفعية الإيرانية و(الله يستر!).

(12)

الساعات تصبح لزجة طويلة قاتلة بانتظار الإجازة الدورية، حيث التوصيات وأرقام التلفونات قد أعدت لغرض توصيلها للأهل (نحن بخير مكاننا آمن يقع بين خانقين ودربند خان سنزوركم الأسبوع القادم وفي بدايته)

كانوا قد أعدوا أنفسهم وبالأخص المتزوجين منهم، فالاستحمام وحلاقة الذقن وغسل البسطال وصبغه ثم غسل البدلة العسكرية والعناية البالغة بالوجه وتهيئة الروح لملاقاة الروح، تلك هي اللحظات التي تسبق يوم الإجازة، كلها لهفة وشوق وحنين الأحبة، كلها انتظار...

(13)

تتهيئين للعمل، ممتلئة بالأمل مع بزوغ شمس الصباح، وأنا أعد حطباً رطباً على قمة جبل لوحدي وأهيئ شاياً ساخناً لجنود (الحظيرة).

ها إنك تبدئين بالخروج، فموعد السيارة قد حان، لا أدري بماذا تفكرين الآن في هذه اللحظة، لحظة خروجك من البيت.

الهاجس الديني، يراودني، ربما لأنني أعيش الخوف كإحساس ملموس، ولكن هل هو شعور مؤقت تفرزه الأمكنة والعلاقات الاجتماعية والضغط النفسي، أم أنه التأرجح.. ربما ولكن الهاجس الديني يرعبني!

(14)

أحلم بأشياء جميلة لأن ما يحيطني غير جميل، فالحلم هنا معناه قيمة تعويضية عن شحة الواقع ويباسه.. وهناك في أحيان عديدة حينما تكون وطأة الوحدة ومشاعر الغربة حادة وكثيفة، نحتاج إلى بعض الناس، حاجتنا للأكل أو الشرب، لأنهم يصبحون نسغاً صاعداً للروح مانحاً لها بعض روائها، إنها قسوة الأمكنة البعيدة، أمكنة النفي الإلزامي...

سكون شامل، ليس غير القبّرات وطيور السنونو، وهي تبحث لها عن أعشاش، إنه الشتاء، يا عيني!

لماذا يكتب الإنسان عن الخوف؟ هل لتبديده أم لتأكيده؟

ما أروع ألا نخاف (يا بعيد الدار عني ومن قلبي قريباً) إنها اجتياحات الحزن التي يبثها ذاك الصوت المفعم بالخلود، صوت السيدة أم كلثوم.

(15)

ابتدأت هجرة السنونو، وها أن مجاميعها أخذت تبحث عن أعشاش لها في سفوح الجبال وعند جوانب الوديان، إنه طائر مسكون بالهجرة، وديع، يبني أعشاشه بهندسة متميزة مستعملاً لها الطين والقش، فيه ملامح إنسانية، حتى إن الناس البسطاء في قرى الجنوب يسمونها (العلوية)!

(16)

ملاجئ.. ملاجئ، ملاجئ.. إعادة حفر ملاجئ، أحجار، أتربة، جهد غير إنساني، تعرق باستمرار، ملابس ملتصقة بالأجساد، يمتزج العرق بالأتربة فيصبح طيناً، علاقات تافهة، أحقاد ومؤامرات صغيرة، ضحكات متفرقة وعبارات منافقة، تناقضات تفرزها عزلة المكان وتكرار الأحاديث واستهلاكها.

تفوح من جسدي روائح متعددة في نتانتها وعدم تحملها، خصوصاً وأنني لم اغتسل طيلة الأسبوع الفائت.

وعندما أصبح الجندي المكلف الاحتياط (ب) موضوعاً للعقاب، وجد نفسه محاطاً بالأسئلة والإلحاح على تفسير موقفه ثم التلويـح بأشد العقوبات، وبين الجر والعر وجد نفسه في أسوأ المنازل، فلم يستطع أن يجيب على الأسئلة ولا أن يعترض على صيغ الاستهانة المريرة التي قذفوه بها، تصور نفسه وقد تحول إلى (حشرة) في ذلك المساء وحيداً معزولاً مخذولاً، بدون عوالمه الأثيرة إلى قلبه...

(17)

إنها أولى غيوم الشتاء، وصمت تحول الطقس يخيم على الوديان الجرداء، الجميع أعصابهم متوترة، وكل له أسبابه، حيث نتوقع هجوم إيراني عند الليل، حصلت بعض المشادات الكلامية بين أفراد مجموعتنا، وتلك عادة سقيمة لا يتخلون عنها في أسوء الظروف.

ليس هناك غروب هذا المساء بسبب كثافة الغيوم، أبلغونا بضرورة الاقتصاد في الأكل والماء مخافة الحصار الإيراني المتوقع، خط الجبهة ساكن، سكون حاد كشفرة سكين، ثم قصف مدفعي ثقيل ومتقطع، انتهى يوم أمس بسلام إلا أن ثعباناً أسوداً كاد ينفث الموت في صدر أحد الجنود لولا يقظتنا في الوقت المناسب.

مساءً، أكلنا السمك المسكوف، حيث جلب لنا المطبخ العسكري سمكةً متوسطة الحجم من النوع البحري، فقمنا بإعداد الحطب وتهيئة النار ثم شوينا لحماً أحمر معها، فكانت النتيجة أننا لم نشبع جميعاً ولم يشوى اللحم الأحمر جيداً، لأننا كنا سبعة جنود والسمكة صغيرة، وإننا وضعنا اللحم الأحمر جميعه في شيش واحد! المهم كانت أمسيةً تخلصنا فيها من الطماطه!

صباح اليوم التالي، قمت بإعداد الفطور، فعجنت العجين لأصنع منه خبزاً بالدهن، والنتيجة كانت فضيحة، فالعجين لم يصبح عجيناً مهيئاً وأخذ بالتسرب بين أصابعي ولم يركد لأصنع منه فطيرة، وبين حين وحين كنت أضيف شيئاً من الطحين لأجعله أصلب وهكذا والوقت يمر والجميع نهضوا وأنا لم أصنع شيئا وفجأة فكرت بطريقة وهي أن أضع قبضة من العجين في الدهن وأفرشها داخل المقلاة بالملعقة وهكذا حفظت ماء وجهي عند ذلك الصباح...

أحياناً ألوم نفسي لأني أتجرأ هنا، وأرسمك في خيالي كما أشتهي، متجولاً في جغرافيتك الأليفة لي، مستذكراً مرةً ومتوجعاً مرات فتمتد أصابعي لتغرق في زوايا حنانك السخي، ألومها مراراً، ولكني أكتوي لعنةً لا تهدأ، بين صخور جرداء ووسط وحوشٍ نسميها (مجازاً) بشر...

المجال الوحيد لابتلاع ثلاثين يوماً في الجبهة، هو القراءة، وربما وددت لو كنتِ كتاباً يرافقني في غربتي، لكنما نقاط التفتيش، حتماً ستصادره كواحد من الممنوعات العديدة في هذا الوطن، وعندها يموت قلبي هماً!

(18)

أولى حبات المطر الشتائي، في هذا اليوم الاحتفالي بالنسبة لنا وكأن الطبيعة تحتفل معنا، المشكلة أننا لم نكن مستعدين للشتاء، فقد داهمنا البارحة ليلاً مطراً كثيفاً ولم تكن لدينا فوانيس للإنارة داخل الملاجئ، مضافاً إلى ذلك فإن الملاجئ برغم كل الجهد الذي أ نجزناه لها فإنها تبدو غير مستعدة لقبول موسم الأمطار التي نعتقد أنها ستكون غزيرة، وكأن الطبيعة تريد أن تغتسل من فصل الصيف وما علق بها من غباره..

مازلت تحت (نشوة) رذاذ أيلول الجميل، حيث رائحة الأرض وقد بللها الرذاذ الأول لأمطار الشتاء، وتبدو الآن وكأنها تعيد انتظام تنفسها للموسم الجديد، لماذا يعشق الإنسان الأرض بل وتدهشه تلك الأسرار التي تحتويها؟

البارحة ليلاً، كان هناك هجوم إيراني واسع على قاطعنا، ولم يتوقف.

إلا أن المكان الذي نحن فيه لايزال هادئا نسبياً...

(19)

الانتظار...

كان يعني عندنا مستقبلاً يطفح بما نريد، فهو الأمل الذي طال، بأن نلتقي في موعد كان زمانه العمر الذي فات، وهو الطموح الذي تفضحه عيوننا، ونتلمسه عبر حرارة الكلمات التي نقول، وصدقها المزروع بالثقة الغريبة التي تصل حدود الدهشة وحتمية السؤال المؤجل، وكانت الإجابة، مواعيد حميمة، يكتنفها الفضول والشوق للكشف عما وراء مفردات لغة العيون الدافقة، فكانت جلسات أشبه بالعمل السري المنظم، كل الأشياء بعقلانية حتى العواطف المتأججة، وكان لابد من الخوف الذي يسبق نتائج الأمور، بل ولحظات الحسم، تلك التي نتجاوز فيها أنفسنا، كانت المشاريع ممتلئة بكل التفاصيل، حتى أصغرها شأناً، بل لم نكن لنريد مَنْ يفاجئنا بمسألة لم نحسب لها حساباً، وكانت البرقية الأولى:

«قلتُ، لو أعطيتَهُ بعض البنفسج، ولكني لم أعُد أملكُ منهُ شيئاً، خُذْ منّي أقحوانة».

(20)

إن قمة جبل (بمو) تكللت بالثلج منذ الصباح الباكر والبرد أخذ يتزايد تدريجياً، غير أن القصف المدفعي الإيراني لا يريد أن يهدأ، لا أدري لِمَ يضيِّعُ العراقي عمره في سلسلة الحروب التي لا تنتهي، إنها استمرت طيلة أربعة عقود من الزمن وكأنها قدراً أهوج لا يريد أن يريحنا...

"في عيون الناس الفرحانة بلمح صورتك" ما أعذب صوت شادية، وتقولين "لماذا تلازمك فكرة الموت الرهيبة؟

أهكذا تفكر بأنانية لتهرب من معاناة أصبحت جزءاً من حياتنا" "لماذا تستسلم لمثل تلك الهواجس بمثل هذه السهولة؟

أنسيت لحظةً بأنك لا تسير وحدك في هذا الطريق!»
"أحِبُّكَ بفوضويتكَ.. أحِبُّكَ بتمردكَ"

(21)

زارنا حلاق الوحدة، وتطايرت نتف الشعر في هواءٍ جبليٍ بارد، حلقَ رؤوسنا في الهواء الطلق، وها هو غروب آخر يسرق شمس النهار عن بلادي، ترى متى الشروق؟

طيور السنونو تحلق واطئةً، لماذا؟

سفوح الجبال تكتسي بعشبٍ أخضرٍ زاهٍ، والبرودة معتدلة أثناء النهار، حيث أن الشمس تشرق بكرمٍ واضح، غير أن الملاجئ أصبحت رطوبتها لا تطاق وباردةً، أنها تمطر منذ ليلة أمس، أما برودة الهواء فما أشدها ليلاً، قبل يومين أكلنا سمكاً مقلياً وحاول أحدهم أن يطبخ لنا (الدولمة) إلا أنها جاءت غير مطبوخة بشكل جيد وتذكرت جودة (الدولمة) عند أهلينا...

"من أين يجيء الحزنُ إليَّ وأنتِ معي" تلك هي نغمة الفرح المتفائل التي صاغها شاعر ألماني كبير (شيلر) ممتزجةً بنبضات (بتهوفن) العظيم في السيمفونية التاسعة، نشيد الفرح..

(22)

(الدبس)

مزارع القمح التي لم تنمو بعد وأعمدة الغاز المشتعلة دوماً من آبار النفط تحيط غرفتنا المتآكلة بفعل الرطوبة والمطر الدائم، لكنها تبدو مترفة قياساً لملاجئ الأمس، خمسة أسرّةٍ شبه متكاملة لنوم دافئ ومريح، وطبّاخ غاز صغير ولوكس لإنارة الغرفة، أنها (مكرمة) المتروكين في المعسكرات الخلفية...

عندما تكون هناك شمس ونسيم عذب وصباح يكتحل بكل الإشراق وآمال حية وعيون ترى وأصابع تتلمس وتبني وذهن يتفتح يومياً على معرفةٍ جديدة للعالم وقلب طافح بحب الخير للإنسانية، عندما يكون ذلك حاضراً وملموساً لا تستطيع كل الغيوم السوداء أن تحجب شمسنا الساطعة.

(23)

من منفاه الاضطراري (الجزائر) يستذكر عدنان يوسف، وهو فنان مسرحي من جماعة مسرح الفن الحديث، يستذكر تلك القصائد التي كنا نترنم بها في مساءاتنا الجميلة إبان عقد السبعينات.

«حبيب القلب تعالَ ولاتأتِ/زيّتنا من أجلِكَ أبوابَ البيتِ /لكنّا لم نترك خلفَ نوافذهِ/ غيرَ الوحشةِ والموتِ» و «يا نجماً أبيضَ فوق خليجِ البصرةِ/أقسمتُ عليكَ ثلاثاً/

بالمنفى، بحنين الموتى، وبأمواجِ بويبْ/إن كنتَ لخيرٍ جئتَ فقُلْ/بعد قليلٍ سوفَ يصيحُ الدّيك/ويستدعي الأموات إلى المثوى/أو كنتَ لشرٍّ/يا شبحاً فوق خليج البصرةِ/ عُدْ للبحرْ / شرور مدينتنا تكفي/» مقاطع من قصائد للشاعر يوسف الصائغ.

ترى أين أنت الآن يا عدنان، أيها الصديق البعيد القريب.

(24)

في تلك الظهيرة «تراءى لي طيفه الناحل، يلوحه اصفرار السهر وأكواب القهوة المحروقة» في لوحة سوداء تصفعك مراراً وأنت تحدق فيها و (الكلاشنكوف) تغفو كسلى في حضنك التعبان، أنه السجن، وصدفة غير محسوبة وخبر متوقع، وأنت في أقبية للحزن الموحش تحدق عبر حلم طويل، يتخلله الأحمر والبنفسجي ثم يأتي الرمادي ملفعاً بغمامة ثقيلةٍ، ما أثقلها وأتعبها، أنك تسأل نفسك الآن، أي الأسماء تبقى في الظل، وأيها بماء البحر مترع، تعيد السؤال مرة ومرات، ثم تبحث عن سيجارتك الأليفة، هل تجدها؟

أم أنك تتوهم ذلك، لا تستذكر شيئاً حتى قائمة الأصدقاء الطويلة، بل تضغط على أصابعك التعبى، لتبدد التركيز اللعين ويتكرر ألمك وأنت تبحث عن سيجارتك، إلا أنك قد تبصق مرةً وألف في وجه.. في وجه من؟

ها إنك تصرخ الآن وبنشيج كالنزيف الممتد من البحر إلى البحر، ليست صرخة، وإنما بصقةٌ على هذه الجثة المتمددة......

آه لو أن (خالد) أكمل مساجلته معي بشأن القرامطة، ترى أيعتقد أننا سنكمل المساجلة كما أعتقد أنا؟

(خالد السلطان – مثقف موسوعي ومخرج مسرحي من البصرة).

لا أدري كم أمضيت من الأيام ترفع هذا الشوك المزروع في الجسد، جسدك وبألمٍ أسْتَشْعِرُهُ أنا، ولا أدري أين أنت بالضبط وكيف تكون القهوة المصنوعة على عجلٍ بانتظار.. بانتظار من؟

هل يَجْمَعُنا حلمٌ يتسرّبُ كالحياةِ من بينِ الأصابع؟.. يجفف دماً أسوداً لا أدري منبعه فكله ينابيع، يقترض سيجارته ويغصُّ بسعلتهِ، النسكافية جاهزةً في بيتي يا(خالد) وأنا أنتظر.

"هل لي بورقة مهما يكن لونها، فأصابعي عطشى لأن ترسم كلمةً، أي كلمة، مدادها الدم والكبرياء" يتمنى وأصابعه معقودة حول ركبتيه، ثم يؤجل شوقه لأن يكتب شيئاً ليومٍ لا يدري كيف يكون.

هل يعتقد (خالد) أنه سيكتب شيئاً كما أعتقد أنا؟!

(25)

في إجازاتنا الدورية المتباعدة يتحول لقاء الجمعة مع الأحبة الأصدقاء إلى احتفال فيه الهموم والأفكار والانفعالات والضحكات والمناقشات المحمومة في شتى صنوف المعرفة.

كنا نحرص على أن نلتقي مع الأحبة الدائمين القاص فهد الأسدي والموسيقي والقاص أسعد محمد علي والشاعر حسين الحسيني وهو يأخذ دوماً ركناً وسط المجموعة ويكيل للجميع النعوت الفاحشة والقفشات الضاحكة، وكان توفيق ناجي يتوسطنا بنظارتيه الغامقتين وصوته الهامس وعلى مقربةٍ من شاعرنا الجميل رشدي العامل ومصطفى سام ود. سامي سعيد الأحمدي ولابد من عبد الحسن سلمان ذاك الطائر الرهيف، تلك الجلسات دوماً تمضي بنا سريعاً إلى منتصف الليل ونحن في قاعة اتحاد الأدباء أو نادي الإ علام، لنتفرق بعدها وسط شوارع بغداد التي يخيم عليها التعتيم وروائح الحرب المستعرة.

(26)

بين أن ترتضي يومك،
مشتعلا كسيجارتك،
يا(توفيق)،
وأن يشرق في وجوه تألفها نبضٌ يرتعش كعصفور جريح ،
مسافةً تقطعها متكئاً على سنين من العمر لم يبق منها إلا رائحتها،
يا(توفيق) هو الوجدُ منتشراً في وجوه الأحبة،
أصابعك مرتعشةً،
صلبةً،
هشة،
عامرة،
بالحنين،
محطةً يأوي إليها المستريبون،
ثكالى زمنٍ مرّ،
يحلمون،
آه يا(توفيق) لو أن (الكبد) فيك يحتمل قارورة بيرة،
إذاً، لعرفنا منك سر الوداعة والحنين،"

توفيق ناجي – صاحب أشهر صالون أدبي وثقافي غير رسمي (محل خياطة) في بغداد طيلة أكثر من ربع قرن.

(27)

كنت أعُدُّ الأيام على أصابعي،
وكذلك أعدُّ أصحابي وأحبابي على أصابعي،
وسيأتي ذلك اليومُ الذي لا أعُدُّ على أصابعي سوى أصابعي،"

شاعر فرنسي

وهو في خندقه الموحش في مملحة الفاو كان يسجل تلك الملاحظات المنسيّة.

في حكاية الموقد وتقاسيم على وتر الربابة، هناك انتظارات ولوعة، هناك اشتياق يصل حد الجنون، هناك جنود عراقيون يعودون ولا يعودون، من جبهات قتال متعددة، ظلت تبتلعهم عشرات ومئات وآلاف.

عن سنين عجاف لمسناها ونلمسها الآن، عن تلك السخرية الموجعة لحروب مفتعلة، دروبها مقفلة ونهاياتها مفتوحة، أن (محمد خضير) ذاك المتوجع البصري الذي تبتلعه أزقة البصرة العتيقة لقادر على أن يومئ وتكون إيماءته ساخرةً موجعةً حادةً أنها سكين الحقيقة وهي تحفر في الظلام.

حكاية الموقد وتقاسيم على وتر الربابة قصتان من مجموعة القاص محمد خضير المعنونة (المملكة السوداء) المنشورة عام 1972...

يبدو أن خيوطاً سرية طويلة تمتد عبر قارات هذا العالم المسكون بالغرائب والحقائق الكبيرة، تلتقي هذه الخيوط عبر تلك المسافات الموحلة والقاحلة أحياناً، فعوالم ماركيز الكولومبي قريبة الشبه وربما ذات أواصر خفية في علائقها (القربوية) بذلك البحار البصري الضبابي (محمد خضير)!

وربما (تعتقد) أن ماركيز قد زار خليج البصرة أو أن (ماكوندو) قد عرفت خطى محمد خضير ذلك السندباد الذي لايريد أن يبوح بسفره الدائم عبر تلك البحار الكونية التي يركبها من خليج البصرة! (تعليق على قصص شجرة الأسماء، المملكة السوداء، الأسماك).

(28)

(يارمجة)

كانت فراشة صغيرة بألوان مفرحة، تحط حيناً وتطير حيناً، غير أنها حاضرةٌ في أرديتي وعند مساماتي والتصاق الجفون حدّ التعب، إنه الغروب، تغيب الشمس في (يارمجة) شرق الموصل بين بيوت الطين وأشجار اليوكاليبتوس المتناثرة عند قرية تقترب منا مئات الأمتار يومياً، ولا يفصلها عنا سوى حقول الحنطة الخضراء العطشى... وغابةٍ للفستق وقريةٍ تأوي رعاةً وعوائل قتلى الحرب، ذلك هو معسكرنا الصغير (الجديد) وقد غطته الحشائش الخضراء وزهور (البابونج) غير أن دجلة ينساب ليس بعيداً عن ملابسنا الداكنة وقد انتشرت مغسولةً على أسطح القاعات الرخامية وقد استحالت غبراء بفعل الشمس وأمطار الشمال الدائمة...

إنه العيش في المدينة إذاً، بعيداً عن ملاجئ الجبهة الرهيبة، كما أن الوجوه قد تغيرت نوعاً ما، فهذا (رحيم الشرع) بإحباطاته القديمة وتطلعاته الحذرة وذاك (حسين جبار) المخابر الراقص على أسلاك التلفون بثرثرته التي لا تعرف قرار، ومدرس الرسم التركماني الذي يجيد فن غناء المقامات العراقية القديمة وقراءات القرآن الكريم ومدرس اللغة العربية الموصلي ذو الاتجاهات الدينية الصارمة، المشكلة هي اعتياد

الأمكنة وتأمين الحاجات اليومية الشخصية، الموصل جميلة بشكل غير متوقع، ولا أدري لماذا تذكرني بدمشق، ففيها الكثير منها، المناخ هنا طيب جداً وتبدو الأمور اعتيادية في هذا المعسكر الذي تتقاسمه ألوان الأخضر والأبيض، خضرة الأرض وبياض الأبنية الرخامية، غير أن النفوس تأبى هنا إلا أن تحتفظ بسحنتها المعهودة، وكأنها تعيش عزلتها (الماركيزية) بعناد غريب.. ..

أحياناً تتحول المدافع إلى لعبة يلهو بها بشرٌ يحسبون الساعات الطوال كأنها دهرٌ، يقول (ايليوت) "وأفلحنا في تجنب الالتفات إلينا" ولكننا لم نفلح في أن نتجنب هذا الالتفات، فنحن نلتفت لأنفسنا بحساب اللحظات، ونرى بؤسنا المزروع فينا، فكم هو رهيب هذا الالتفات المستديم!

(29)

الشمس تغيب، وقطيع الأغنام يعود متعباً حيث لا أعشاب الآن، غير أن خط الغبار المتخلف وراءها يكاد يحاصرنا ونحن في انهماكاتنا اليومية غير آبهين بها وهي تجتر المتبقي من أعشاب الربيع الفائت.

إن جرائك يا (فيليب) قد كبرت وأصبحت كلاباً وما عادت تذكر أصابعك النحيفة وهي تسقيها حليباً، أعتقد أنه يصلح لتغذية الجنود المتخمين بالخيبة، ترى هل نسيتها أنت

الآخر، لا أعتقد، فمن يزرع زرعاً طيباً يترك فيه بعضاً من روحه، بعضاً من دمه أو رائحته، وأنت الذي بدأت تعيش في الذكرى، كان زرعك فينا طيباً، وستمضي السنين مثقلات بنا أو بدوننا، وربما نعود لنفتش بين سطور الأوراق القديمة ونقرأ، فيدور في العيون سؤال وحيرة:

ترى أين هي الآن جراء (فيليب)؟

فيليب – عريف في الجيش العراقي، مسيحي، فر من العراق هو وعائلته عام ١٩٨٤، بعيداً عن الحروب المتواصلة.

(30)

الخرنوبْ

إن طفلتين صغيرتين طلبتا مني السماح لهما بالبحث عنه في باحة المعسكر الواسعة، بحثتا عنه بنهم، تاركتان ماعزهما يرعى بعيداً، أكيد أن (الخرنوب) لا ينمو في المدينة!

(31)

يبدو (حمام النعيم الحديث) الذي يجاور النبيّ يونس في الموصل قريب الشبه بحمام (المعروف للنساء) الذي يقابل مقبرة الشيخ معروف الكرخي في جانب الكرخ في بغداد، يوم زرته مع الأهل وكان لي من العمر ٤ سنوات، غير أني كنت مدهوشاً مما أرى من أشكال النساء العاريات، حتى أن واحدةً منهُنَّ انتبهت لي واعترضت لدى مسؤولة الحمام على دخولي.

في الحقيقة كنت بريئاً في فضولي ذلك غير أني كنت منتبهاً على أسرار ذلك العالم، ولا أ ستبعد التفسير الفرويدي لذلك السلوك الطفولي، حيث كنت مبهوراً بلذة الاكتشاف!

(32)

"فقبل التجربة جميع الناس مناضلون وربما أبطال"
حنا مينه – روائي سوري

وتلك حقيقة ملموسة فالتجربة هي المحك على أصالة المبادئ والقيم الإنسانية، وبها تغتني الذات وتنضج، وتزيل عنها أدرانها، وما علق بها من شوائب، وتنشأ المعادلة الصعبة بعد التجربة، وتلك هي محصلة الصراع بين الفكرة والفعل، ذلك الصراع الذي لولاه تبقى الفكرة أسيرة التردد والتلكؤ والخوف المبطن والقرارات المؤجلة وعسر مواجهة الذات بكل أبعادها، غير أن الصراع المحسوم لصالح الفعل، الفعل الإنساني المتقدم، يشكل نواة النضال والبطولة الحقيقية، وتلك تتبدى عبر الشواهد اليومية والصغيرة إلى الأفعال الأكثر جسامةً، والتي تخرج عن كونها محصورةً بما هو ذاتي ممتدةً إلى التطلعات الأكثر عمومية والأكثر إشراقاً لما يشكل بالنتيجة فعلاً إنسانياً متقدماً.

(33)

عندما حاولت أن أعرف مدى ارتفاع أشجار اليوكاليبتوس أو التين البري في غابات الموصل الكثيفة والخضراء الممتدة إلى جوار دجلة المتسارع نحو بغداد، عندما حاولت وتعبت لأنها شاهقةً تذكرتكِ، ها إن أصابعي ممتدةٌ إلى أجمل أجزاء هذا (اللواء) العثماني الأصل، وبذا أكون مستعداً لأن أطوف بك مشياً أو ركضاً (رغم أني أشك في تحملك لمثل هذا الطواف الممتع المتعب) غير أن رؤيتك للمئذنة الحدباء وصعودك التل الذي زاره النبي (يونس) فأصبح أحد الجوامع المعروفة إلى جانب جامع النبي (شيت) يستدعي تهيئة (عباءة نسائية) بمثابة جواز مرور لهذه الأمكنة مثلما حصل عند زيارتنا لمرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني.

(34)

الكلمة كانت تشاركنا المسرات والأحزان، هي السلوى حينما نفترق، وهي البهجة حينما نلتقي، وهي السُّلم الذي يوصلنا لبعضنا.

غالباً ما تكون البدايات صعبة ومغلقة، أما النهايات فإنها تبقى مفتوحةً، ذلك الإحساس الذي ينتابنا عند الكتابة، وحينما تكون الورقة بيضاء خالية، إنه شعور المنقطع في صحراء، قد تبدو الكلمات أحياناً نوعاً من التسلية، تلك الكلمات التي تصافحها العيون أو تحفرها الأصابع على خدود الورق، وما نبتغيه أحياناً لا يبتعد عن ذلك بل يدور حواليه، غير أننا لابد أن نعاشر الكتابة، بدونها نذوي، وبها نستشعر العافية، عافيةً تنمو من نسغك الخاص، أنْ تخضَوضَرْ أغصانك رغم الجدب، وأن تتنفس هواء هذا العالم ونوافذك مشرعةً، ربما نتوهم أن جميع الأبواب قد أوضدت، وإننا حبيسي ما هو يومي وعابر، ويتملكنا هاجس اللا جدوى فنغرق في لعبةٍ كرهناها مراراً لعبة الأرقام العابرة، تلك التي تمر سريعاً في دورة الحياة، يبدو ذلك وهماً لأننا نقاتل البلادة بضراوةٍ حادة، بل أننا نعمّق خضرتنا الوارفة، غير أن للسنين هنا طعمها المميز، فهي تمر سراعاً عادةً، وآثارها الموجعات باقيات، وغالباً ما تحفر أخاديدها عميقاً، جروحاً تنكئها باستمرار، وما يبقى عادةً نحن ناسها

موضوعها الدائم، نلملم ما تبعثر، ونجبِّر ما انكسر، ونبني ما تهدم، تلك هي دورة السنين في هذا (العراق) عنيفةً وموجعةً غير أنها لا تتوقف!

أين يكمن الشعور بالقوة؟ إنه في خلايا الإرادة وفي نبض القلب وفي تلك الحركة التي لاتكلّ، حركة أن تحيا وسط الموت وتكافحه ربما تضعف ولكن لا تنتهي، أن دورة الكفاح هذه معجونةً فينا، وأنْ تضمحل في جانب أو تلين، لكنها تكبر وتتألق حتى في الأمور الصغيرة لأنها تنتمي لنا، هل هو الشعور بالقوة أم القوة ذاتها؟

المصيبة أننا قد نقع فريسةً لهذا الخلط ويصعب تحديد ما نحن فيه، وربما نتصرف كأفعال ونحن أسيري هذا الخلط، غير أن المحك اليومي والمواجهات الفعلية تقرب الصورة وتجعلها واضحةً، وفي ذلك تشذيب للكثير من ادعاءاتنا، بل وتصحيح لها، فيما لو تم رصدها وتجاوزها بوعي، إذاً ما نريد أن نؤكده هو القوة في تجليها وبهائها، واضحةً، ناصعةً كالشمس، نقترب منها بوضوح..

(35)

يعود القمر إلى تألقه الشاحب المغلف بتلك البرودة المحببة، ويحلو حينها الوقت لأن يتسكع عشاق المساء مرتعشين فرحاً ونشوةً، فيمتلئ القلب بالدم الضاحك وتنهزم اللوعة إلى حين، إنها ليلةٌ من ليالي تشرين، حيث الطبيعة وروعتها، الأمكنة العابقة بالألفة والخضرة والحنين الشرقي، إنها الموصل..

ومع شروق الشمس صباحاً، وصراعها مع كتل الغيوم الهاربة، تبدأ قوافل الغراب الأسود (الحُر) سعيها، فالسماء مغطاة بتلك الطيور الفاحمة التي يبدأ موسم هجرتها عند حلول الشتاء من كل عام، لها صوتها الأجش غير المريح، إلا أن لونها مع خيوط الشمس المنعكسة يتحلل إلى مجموعة من ألوان الطيف الشمسي التي تسرع بالاختفاء حين تصطفق الأجنحة لتبدأ القافلة مسيرتها، لكن صعاليك المسيرة يتخلفون دوماً لالتقاط ما يتبقى، فترى بعضها على أعمدة الكهرباء أو بالقرب من مزبلة المعسكر، تنقر، تتقافز، تتقاتل، تتطاير، تحط ثم تلحق بالركب.

(36)

في مطعم القطار (الصاعد إلى الموصل) تلتقي (العم سعدون) حديثه المقطوع بطلبات الطعام المتعددة (بتيتة جاب، لحم روست، فخذ دجاج مع السلطة، وأحياناً بعض الطلبات مع قناني البيرة أو مع أكواب الشاي وقناني البيبسي كولا)

ثم أسئلته المقتضبة ونظراته الجانبية الطويلة التي يوزعها بلا تعيين، لا أدري لِمَ أرجعتني هيئته الكلاسيكية إلى سنين خلت، كنا نسكن فيها محطات وقطارات لا تتوقف، نهارها طويل وليلها أطول!

شخصية (العم سعدون) أليفة ومريحة رغم هيبتها الظاهرية، هل لأنه أعادني إلى وجوه وموضوعات تكاد تختفي من وجودنا اليومي، صور السنين الفائتات التي تركناها بعيداً، حتى إنها تبدو شاحبةً أحياناً لا نكاد نميزها.

هل خطر ببال (جان كابان) أن العم سعدون (شبيهه) يعمل منذ ربع قرن في القطارات الصاعدة والنازلة من وإلى بغداد شمالاً وجنوباً، لا أعتقد ! جان كابان – ممثل سينمائي فرنسي معروف.

(37)

أوراقك الممتلئة بالعافية، عافية الفكر وعافية الروح، وتلك هي بشارتي، أوراقك الممتلئة بالحنين بين يدي أحتضنها كأنتِ!

تقولين مع الماغوط «قرعتُ البابَ بهدوءٍ، وأسْلَمْتُ عينيَّ لوجهِهِ الحبيبْ، للسفنِ المبعثرة كالعَلَقْ على قدميْ، فلم أجِدْ غيرَ الرّيح، والأوراق الممزّقَة، سريرُهُ فارِغٌ، وثيابُهُ مسلوخَةٌ عن الجُدرانْ، والمطر يضرب النوافذ كالجلّاد، كان وسْط الشارِع يغيب، يتأبط ثيابه وكتبه، سأبكي بحرارة، سأرنو إلى السقف والبحيرة والسرير، وأتلمس الخزانةَ والمرآة، والثياب الباردة، سأرتجِفُ وحيدةً عندَ الغروب»

محمد الماغوط – شاعر سوري من أبرز شعراء قصيدة النثر في العالم العربي.

(38)

”أن تجلبوا الدفاتر وتحفظوا النصوص وبالأخص النشيد الوطني، لأننا سنفتش ونختبر باستمرار والويل لمن يقصر، لا تضعوا صورته على موائد الطعام واحفظوا الجرائد في أمكنةٍ مناسبة، دونوا خطبه وما يقوله دوماً، وباستمرار في دفاتر خاصة واحتفظوا بها، ليكن دستوره انجيلاً عصرياً واجب الحفظ والتلقين والويل والثبور لمن ينسى او يتلكأ، التزموا النظام ومجدوا الروح العسكرية (له) ولرجالات تاريخنا العظام، إنه سليل كبريائنا ومجدنا الذي لا يخبو، إنه النور الذي سيعم الأرجاء بعد أن يسود الظلام، إنه وإنه وليكن...!“

مقطع من رواية (1984) لجورج أورويل.

هذه اللغة بكل ما تحتويه من تعسف واستلاب هي الخطر الداهم لوجودنا اليومي، إنهم يريدون أن نتحول إلى ببغاوات سهلة التلقين، أنها ورطة كبيرة، كيف سنواجهها الآن، وكيف سنواجه أنفسنا مستقبلاً، إننا نحدق إلى هذا السجن الكبير من الداخل، يا لبشاعته التي لا تتصور، إنه عذاب مستمر ومتفاقم.

”أنها مرآة لما يمكن أن ينتظرنا، إذا استمر انحدارنا نحو هوة (طغيان السلطة) هي وليدة خيال غدا اليوم يقصر عن الواقع

(الحقيقة) وخلاصة تفكير نظري، أخذ ينقلب بسرعة إلى واقع موجع تنتشر آثاره من حولنا، وتطرق أبواب مجتمعاتنا بعنف.“

إن هذه الرواية القاسية السوداء تنتمي لنا لأنها تتكلم عنا بصدق، إن هذا العمل الأدبي الموجع يبدأ في الواقع قبل أن نقرأه ولا ينتهي لأنه يستمر عبر هذا الواقع، غير أنه حين قراءته يفتح أعيننا واسعةً وبالضد من هذا الواقع، إن مأساة (وينستون وجوليا) في بلاد (أسيانيا) المترامية الأطراف نلمسها واضحةً حادةً وأشد تطرفاً في كثير من بقاع عالمنا المعاصر، ويبدو أن رؤية (أورويل) القاتمة متحققة منذ زمن بعيد. إن هذه الرواية صرخة احتجاج حادة وعنيفة ضد الدكتاتورية واستلاب الإنسان.

بهرجةً واحتفالات وخطب وموسيقى وقطع حلوى وكيك.. أنهم يحتفلون بعيد ميلاد (الرفيق الأكبر) هذا البطريرك المتبجح صانع الكوارث التاريخية!

(39)

الجرائد المحلية، جرائد اليوم الفائت تصلنا اليوم، وجرائد اليوم تصلنا غداً، غير أننا نتعامل معها وكأنها طازجةٌ خرجت لتوها من الفرن (المطبعة).. (عبد الرحمن طهمازي، رشدي العامل، ياسين النصير، أسعد محمد علي، د. محمد عبد اللطيف مطلب، سامي محمد، بديعة أمين، فاضل ثامر، عبد الستار ناصر، حاتم الصكر... إنهم كتاب الصفحة الثقافية لجريدة الجمهورية) إنهم العزاء الأخير حيث نجد بعض ما افتقدناه في صحافتنا المحلية، وقد تحددت ذائقتنا في قراءة الصحف نحو أسماء محددة أو موضوعات بعينها، خصوصاً وإن تلك الصحف هي
(الرسمية فقط).

بئس زمن تصبح فيه الثقافة تهمة، وهذا زمنٌ أصبحت فيه الثقافة تهمة، هذا الإحساس الفاجع بالزمن، هذا الزمن المسروق عنوةً..

إن الإحساس باللا إنتاجية يصل حد الخيبة.

(40)

إنه الحنين الذي يلازم المسافرين أو في محطات نحسبها نهايات العالم، تلك التي تقتطع من العمر أجمل سنينه وتتركنا لوحدتنا وأشواقنا المؤجلة...

وتقولين «لأول مرة، أتوقف، وأشعر بقلمي يهتز بين أصابعي، يرتجف رعباً، يتخبط على الورق، لا يعرف ماذا يكتب، إنها اللوعة والشوق والحنين، أين أصبحت وكيف أمسيت، هل تعد اليوم بكل دقائقه، هل تلعن زمناً يقسو ويدوس أجمل المشاعر الإنسانية، إنه الخوف والوحدة والانتظار الذي يبحث عن أمل».

(41)

عذراً (عبد الحسن سلمان) فقد وافتك المنية غدراً، أيها الطائر المرتعش الحزين، ماكنت أدري إني سأرثيك، غير أني أرثي نفسي فيك.

سلامٌ على الموتى، سلامٌ على الأحبة، من مقبرة (يارمجة) العتيقة، أشم رائحة البخور، تصلني عبر حقول الطماطم وعباد الشمس، يحملها دجلة الصامت، غير أن ملامح الأحبة الذين غادروا ولم يتركوا سوى أشيائهم الصغيرة المهملة، حاضرة أمامي، تلك الوجوه المبتسمة، أنهم يبتسمون دوماً..

عبد الحسن سلمان، صديقنا الذي غادرنا مبكراً، شقيق الكتبي المرحوم عدنان سلمان والكتبي محمد سلمان.

(42)

ملامسة الموت عن قرب (احتلال الفاو) وانعكاسات الحرب القذرة، جعلتنا لا نملك غير الأماني وبعض الأحلام القديمة، نعلل بها أنفسنا في زمن بدأت تضيق فيه جميع الأشياء، حد الاختناق، ترى هل يتنفس أبناؤنا يوماً، بعيداً عن هذا الكابوس وهل سيعرفون يوماً كيف كنا نختنق ونذوب في آتون الحروب المروعة، نحن الذين لم نروي إلا أحزاننا وبعض الصرخات التي تجرفها الريح!

..

..

..

انتهى الجزء الأول...

رسائل الجندي المنسية

(المزامير)

الجزء الثاني

(1)

إنه السكون الذي يشي بالحركة، وعافية الكلمة إنها تأتي بعد مخاض يجلو عنها ما هو غريب وعالق، تأتي منحوتة بتناغم رهيب، تهتز لها كسعفة تتلاعبها الريح، وأخرى تجعلك محلقاً فوق قمة كونية لا يطالها أحد، من يدري فقد تلمسها ليسري فيك خيط من الكهرباء، أو تضعها جنب أخريات فتعلق بها ممغنطةً.

«الكلمة هي حج، هي انتقال من الذات نحو الآخر، إنها دعوة شخصية حادة، دعوة ترمي إلى إخراجنا من ذاتنا، من بلدنا، من أهلنا، دعوة إلى تجاوز كل شيء نحو الحب..»

لويس ماسنيون – مستشرق فرنسي.

(2)

أي خجل يعتري اللحظة العارية، وأي الأصوات تختنق فيها، وأي حزن لا يتحدد، يمتد فيك ويأخذك صوب أحبة يتفرقون دوماً كحبات المطر على أرض العراق، هيهات أن يبقى للعمر محطات، كلها أقفرت، وأهلها رحلوا وما قالوا وداعاً، وأنت هنا، تحسب ساعات العمر، أين الدقائق فيها والثواني وهل تصير أياماً وسنيناً، تعيد حسابها ثم تشطب، ثم تعيد حسابها لتشطب، ويظل العمر حساب الشطب أو شطب الحساب!

لماذا معادلة الحياة والموت في هذا الوطن تحل دوماً بالموت؟

(3)

أبحث عنكِ مراراً، أبحث عنك وأنتِ بأجنحتك المحلقة، في أي الأشكال تكونين، وعند أي الأمكنة تحطين، في وجوه المارة الذين يتخمون شوارع بغداد، بحثت عنكِ، لك قسمات هذه المرأة، وابتسامة تلك، وعناية هذه المرأة في اقتناء ما تقرأ، أي شغف يمتلكني أحياناً لأن أمد أصابعي لألمسك، تكونين قريبة مني وبعيدة، في لمسة نفنوف أو كتاب، في تحديقة عميقة

كبئر، في رشاقة غزال مطارد، في ضحكة مليئة بالوعيد، أي آهة تلك التي أسمعها وفيها منها الكثير، عبر وجوه المارة الغرباء الذين امتهنوا شوارع بغداد وأزقتها تلوحين لي مرة ومرات، أكاد أجمع تلك الأجزاء الصغيرة لأكمل صورة ولكن هيهات، بين سطور الكتب التي قرأت ألمح ظلك عميقاً كقلب، وفي بارات ما آوت إلا أجلاف وهموماً، أجتر صوراً أعيد تركيبها ثم أبعثرها لأعيد تركيبها حالماً، تأخذني (البيرة) بعيداً، فأجدني مرمياً مرة أخرى بين غرباء اقتحموا مدينتنا عنوةً، هل تكونين قريبة مني وبعيدة ويكاد الأصبع مني يلامس هواء أنفاسك التعبى، هل تكونين كبريائي المضاع وسنين العمر السخية، يكاد يهجرني حنيني، ويلبسني جفاف الصحارى، مثلما نورسةً غادرت شطها وما عادت...

عند آخر الليل قلت مع نفسي: إذاً أنتِ... امرأتي، عبر ليلٍ يتكرر، يطول وينتشر على أرضٍ يغزوها الجراد، يقف جندي الحراسة مرعوباً، يستذكر حالاته...

(4)

•قد تَسَرَّبْتِ في مَسامات جلدِي
مِثْلَما قَطْرَةِ النّدى.. تتَسَرَّبْ.
اعتيادي على غيابِكِ صَعْبٌ
واعتيادي على حضورِكِ أصعبْ.« نزار قباني.

خجلي وكبريائي غير مبررين، وجدتني منجذباً بلا فواصل ولا هوامش منكشفاً كشمس وأخضراً كربيع، أمدُّ يدي فيسبقني قلبي وأفتضحُ.

أتعرفين اللهفة؟ لنطلقها من أسرها هائمةً كنسمةٍ مرت يوماً علينا، وددنا لو تحملنا بعيداً، طريةً وحارةً كخبز الصباح، هكذا أريدك يا آلهة التمنع والاعتذار، مواعيدك أغزلها غزلاً، وتبخلين، أصابعك تبخل اللمسة، وعيونكِ النظرة وفمك الجليل الكلمة أهي النقمة أم النعمة؟

يقتضي لرؤيتك، أيتها المرأة، عمراً تجاوز منتصفه، وها إني أضع سنيني المتعبات بين يديك اعترافاً، تجاوز شرط الزمن، وامتلك تصريح الدخول إلى أعز قلب، فكان الذي يكون دوماً وليس الذي كان.

عذراً ملامحك واضحةٌ وابتسامتك تعادل عمراً وتقولين «لو أني استعدت سنوات من حياتي وبدأتها مع زمني الحاضر لما ضاعت هذه الحقبة من حياتي سدىً».

هل تعرفين بنفسجةً أمرَضَتْ صاحِبَها ولهاً؟

هل تعرفين بنفسجةً تفوحُ بعطرِها صامتةً رائعةً كنغمٍ شجيٍّ يُسكِرُ مَنْ يسمَعُ ويشِمُ ويلْمَسُ، هل تعرفين أني أكاد أفقد مفرداتي تباعاً، ورائحتنا التي تذكِّرنا ببعض، إنه الخريف، الشوق المشدود أبداً، إنه كبرياء الحنان وتواضعه، وهو شغف الروح للامتلاء، وذاك الحزن الشفيف عند مغيب الشمس في خريف العراق.

حرارة الحياة بعد توهجها، انسيابها وعلانيتها الموقرة، صفاءها وعافيتها، عطاءها الصامت وضحكتها التي تشيع بهجة مطلوبة، أي شوق يزرعني عندك...؟

(5)

هذا موسم للموت وللحب، يختفي الأحبة تباعاً، تختفي صورهم وتتلاشى يخطفهم موت سخيف، تختفي ملامحهم الأليفة، تلك المواعيد التي لم تتحقق وتلك اللحظات المترعة بإنسانيتها والتي تشعرك بالدفء، ابتسامات وقبلات، كلمات عن الحال وما آلت إليه الأمور، أيادٍ مضمومة بقوة كمن يشعر بأنها لن تضم بعضها غداً أو بعد لحظة، خيبات واضحة في العيون، أمنيات بسيطة وعظيمة في آن واحد، متابعات متباعدة سريعة مقطوعة خجلة مفعمة بالحب والانتظار و..

همسات عن أشياء تحدث أو ستحدث وربما حدثت، عن أشياء تخص حياتك وسنين العمر الضائع، حيث يضيع العمر بالترقب والانتظار، والرعب الذي يداعبك في جميع الأشياء، أحياناً تحس في أقرب تلك الأشياء رعباً غير معهود، كمّن يرتعش برداً في عز القيض...

(6)

إنه كابوس ثقيل، لا أدري جثَّةُ مَنْ، تلك التي كان يسحبها (أبي) عند ذلك المساء، إنه يسحبها خارج سياج البيت، أي رعبٍ ينتشر في الوجوه عند تلك الساعة المريبة بعد منتصف الليل، هل هي جثّتي؟!

(7)

أجهدني ألم أن تمتد يدي فلا تلمس إلا الفراغ، هذا الفراغ الموحش يوحشني، توحشني هذه الوحشة، هذه الوحشة تحرق زنابق الروح، هل زرتني، هل تزورني الليلة، لا شك أن رصيفين من الزنبق تنتظركَ وحبات المطر...

(8)

تكاد الروح تشتهي حبيبها، في كل حين، هل نكون قريبين، كقبرتين في ظل نبات بري. أوَ تضْحكين ثم تتساءلين أي مجنون هذا، تصمتين طويلاً، ثم تضحكين...

رائحتك التي لا يعرفها غيري، وعرقك الذي لا يعرف ملوحته سواي، انتِ المشتهى والمنتهى والموعد الندي...

«هل تنتظريني كمنزل وحيد أوجعته نوافذه» بابلو نيرودا.

(9)

أي العصافير تلك التي تعشعش فرحة بين خصلات شعرك، وأي الأزاهير تلك التي تتدلى على صدرك الملآن بالحنين، أيا شهقتي الأخيرة، الكلمات تذكارات لا تمحى، وتذكاراتك في قلبي، أراكِ مجنونةً بي، وبعض العشق جنون، وجهك الشاحب القمحي خبزي الدائم، وابتسامتك الرصينة، تحتوي فوضويتي وضجيجي، أي عاشق متكبر يستبد العشق فيه، فيلتهب جنونه ويضيع هدوئه ورصانته فتصبح الكلمات تذكارات للحبيبة التي هبطت ملاكاً بلا أجنحة، أضاع سبيله

فتوسد البحر الهائج والغروب الشاحب والفجر النديّ والفرح المجلجل والأمل المفتوح، فكان بيته بيتي وفراشه فراشي، وأصابعه العذراء ما ارتعشت إلا بين أصابعي، ولم يكشف دموعه لغيري، ماؤه العذب الملآن بالخصب لم يسكبه إلا لي ولي وحدي، الخصوبة في عينيه وفي أفيائه الظليلة، فهو أخضر دوماً وما جفّ يوماً، ينبوعه الثّر ما سقى غيري، فكان ارتوائي من نبعه القدسي صلاةً لا تنتهي وبكاءً رحيماً يبدد احتباسات الشوق والاشتهاء المؤجل، إن ملاكاً أضاع سبيله فأصبح بيته بيتي وفراشه فراشي يحتويني وأحتويه ويشتهيني وأشتهيه يكون دائم الحضور دائم التجلي دائم النمو والشموخ...

هو أنتِ.

(10)

يا قَمراً يصحو، يا قمراً يسهَرْ، في عُتمة الليل الحالكة، تعبت، وطال اغترابي، هل تمر على حبيبي، سَلِّم، وبلغه التياعي.

(11)

إنه آذار، الربيع بكل بهائه، وتفتح الروح والخضرة، إنه التألق الذي يعتري الروح فتشتهي (روحها) وأنتِ روح روحي، فيه اكتشفنا بعضنا، فيه أولى اللمسات المرتجفة العذبة المشتهاة، فيه أولى الهمهمات وأولى الارتعاشات، فيه شغف اللحظة لأن تذوب في هواها البكر، لأن تعتلي سماوات الدهشة، الضحكات الصادقة، فيه رجفة تشتهي رجفة، فيه أولى القبلات وتلك التي تشتبك فيها الأصابع حد الاشتباك، إنه آذار...

(12)

لو أن غيمةً تسرقني ثم تمطر بين يديكِ، فأكون مشرقاً، متوهج القلب ومرتعش الأهداب، ولأني في حضرة الأم الدافئة، تلك التي تحتضن دموعي حين تهطل، والتي أرى العالم من خلال عيونها.

أوَ تنتظرينْ، وتنتظرين، ويطول الانتظار وتتساءلين، أين صوته الهامس يأتيكِ عبر المسافات محملاً بالمواعيد، بالبهجة، بالحب، بالأسئلة، بالحنين، بالأشواق، منثورة على ظلال الغروب الربيعي، وتتساءلين، إنه بعيد..

«إن الحياة لا تطاق لمن ليس له في كل لحظة حماس يهزه» همنغواي.

سيجيء الربيع، وتعتري القلب رجفة العشق والتوق للمسة المشتهاة وذاك الذوبان الغريب، حب المحبين، وحلم المشتهى والمنتهى.

سيجيء حبيبي غداً، قُمصانُهُ مَغسولةً، مُعطّرَةً برائِحَتِهِ، مصفوفة بعناية، أحذيته لامعةً وجواربهُ نظيفةً، قنينة عطره (الأرامس) تحن لأصابِعِهِ الخشنة الحنونةُ، والغرفة التي تجمعنا، تبدو وكأنها في احتفال..

(13)

في غيابِكِ، أدفن رأسي في كتاب، لأني اعتدتُ أن أدفن رأسي في صدرك، ترى ما الذي أخَّرَ طلوعَ القَمَرْ، وهل أنّ غيومَ الأمس ستبرح عندنا طويلا، لكنّ رياح المواسم القلقة آخذةً في الوصول، وهيهات أن تحُطّ حولنا غربان الزرع، إن خصب الروح يفيض من قلبينا وقطار العمر أخضر

(14)

رغم المسافات، يجتاحني بهاؤكِ، ساعةَ أُغيب عنكِ، أو أكون في حضرتِكِ، إنّي أعيد اكتشاف نفسك معي، إنسانيتي وملامحي المحددة.

رغم المسافات تبدين مرهقةً، هذا الإرهاق الحائر، وتلك الشهقة التي تبوح بلوعتها، وذاك الانتظار الذي أصبح عذاباً، والعيون التي غادرتها الضحكة، وسكنها الشوق الرهيب، وتلك الدموع التي تبحث عن مجراها، فهي مختنقة دوماً ويغص بها الحنين.

رغم المسافات، يبقى وجهُكِ الجدّيّ الصارم المتعب الحنون سائراً معي عبر صحارى الملح وهوائها المغبر الخانق، تلك الصحارى التي نكتوي بشمسها اللاهبة الحرون، رغم المسافات، يتراءى وجهك مهموماً مثقلاً بالأماني والأحلام القديمة، فأحمله معي تميمةً، تزيل الغبار وتبرد الشمس اللاهبة، فتقصر عندها المسافات نحوك، وأغدو قريباً منكِ لأمُدَّ أصابعي مرتجفةً، لتلامس وجهكِ الحنون...

باسل محمد عبد الكريم . . .
بكالوريوس آداب اللغة العربية
والشريعة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة بغداد
1976 - 1975
هاتف : 07902721383

الفهرس